الفصل الثالث
الغزل

جعل العماد للغزل مواضع في صدور قصائده ، وخصه بمقطوعات قليلة واتخذ شعر الشعراء الأقدمين ، خاصة العباسيين الأوائل ، مادة لهذا الغزل ، وزاد عليها أحيانًا في الصور والمعاني والأخيلة .

ومما يلفت النظر في الغزل عند أغلب الشعراء آنذاك ومنهم العماد عودة الضمير إلى المذكر ، ويخيل إلينا أن احتجاب المرأة وحجرها في دارها ، وعدم السماح لها بمخالطة الرجل ومجالسته ، حتى المقربين منها ، قوَّى الارتباط بالتقليد ووثق أواصره.

فلم يتركوا التغزل بالمذكر إلى الاهتمام بالمرأة ونعت محاسنها ومشاعرها فأصبحوا في دائرة التقليد ومحتذين حذو أسلافهم العباسيين .

وصف الشاعر الغلام في أعضائه كما توصف المرأة في قدِّها وخدها وخصرها وردفها وشعرها وثناياها وعينيها ، وافتن بحسن منظره ، ولكنه لم ينحدر إلى المعاني المبتذلة الرخيصة التي نجدها عند أبي نواس ، وابن حجاج ، وابن سكرة الهاشمي..... فهو يصف سحر عيون الحبيب ولطافة حركاته ، يقول[1] :

أفدي الذي حَلَبَتْ قلبي لواحظُهُ ... وحَلّدَتْ لدَعَات الحبِّ في كَبَدِي

صفاتُ ناظرهِ سُقْمٌ بلا أَلَمٍ ... سُكْرٌ بلا قَدَحٍ جُرْحٌ بلا قَوَدِ

مُعشَّقُ الدّلِّ مِنْ تيهٍ ومِنْ صَلَفٍ ... مُرنّحُ العَطْفِ مِنْ لينٍ ومِنْ مَيَدِ

(1) الديوان ص 137 .

على مُحَيّـاهُ مِـنْ نـارِ الصِّبا شُـعَل وَوَرْدُ خَدَّيـهِ مِـنْ مـاءِ الحيـاةِ نَـدَى

ويستمتع العماد بشرب الخمرة من عيون الحبيب ، ويتلذذ بتكرار الرشفات ويتوله قلبه بنظرات ذلك الحبيب وغمزاته :

شـادنٌ كالقضـيبِ لَـدْنُ المهَـزَّه سَـلّبتْ مُقْلَتـاهُ قلـبي بعُمْـزَهْ[1]

كُلمّـا رُمْـتُ وَصْـلَهُ رَامِ هَجْـرِي واذا زدتُ ذلَّـةً زَادَ عـزَّهْ

وعزيـزٌ علـيَّ أنَّ اصْـطَبارِي فيـهِ قَـدْ عَـزَّه العَـزَامُ وبَـزَّهْ

مـا رأى مـا رأيـتُ مجنـونُ ليلـى في هَـواهُ ولا كُثيِّـرُ عَـزَّهْ[2]

ويتغزل الشاعر بممدوحه بعد أن مدحه في بداية القصيدة ، حيث إنه متيم بقوامه وبلبسه الوشاح المرصع بالجوهر ومعطفه الجميل ، وذلك في قوله:

أنـا المسـتهامُ بـذاكَ القَـوَامِ وذاكَ الموشَّـحِ والمعْطَـفِ

وذاكَ المقبـلِ والمبسـمِ الـ ـمُفْدَّى المقـدَّمِ والقَرْقَـفِ[3]

ونرى الخدود الجميلة المشتعلة قد أحاطت بقلب الحبيب فلا يستطيع الكلام، فإذا أخفيت ألحاظك الجميلة دمي فخدودك لا تختفي ، كما في قوله :

بخـدِّكَ مِـنْ وَهَـجٍ شُعلـةٌ أحاطـتْ بقلـبي فمـا تنطفـي

فـإنْ تُخْـفِ الحاظُـكَ القاتـلاتُ دمـي فَبِخَدَّيـكَ مـا يختفـي

ويرى خد وخصر الممدوح مرهفًا ، فيوجد عليه أقاح وآس وورود :

وَقَـالَ أرَى حَـدَّهُ مُرهـفًا ولا عيـبَ في خَصْـرِهِ المُرهـفِ

(1) القضيب : الغصن ، والجمع قُضُب ، وقضْب (لسان العرب 15 / 4) .
المهزه : مهزه ومخرَه وبَهَزه بمعنى واحد : أي دفعه .
(2) الديوان ص 223 – 224 .
(3) الديوان ص 302 .

أقَـــاحٍ وأسٌ وَوَرْدٌ لهـــا اجـــ تمـــاعٌ علـــى غُصْـــنٍ أهيـــفِ[1]

تعلق شاعرنا بالحبيب وارتبط فكره وعقله به ، ويتمنى أن يرى طيفه وألا يغيب عن ناظريه حتى في منامه :

أتمنـــــى ليلـــــةً مِـــــنْ طيْفـــــهِ في النَّـــــومِ حَلْـــــوَهْ

ومتـــى أطمـــعُ فـــي الطَّيْـــ ـــفِ ومـــا للعَـــينِ غَفْـــوَهْ؟[2]

ومن غزله بالمذكر أيضًا قوله :

بـــأبي مُعْتَـــدلُ القـــا مـــةِ في عِطْفيـــهِ نَشْـــوَهْ

حـــاكمٌ في مُهَـــجِ العُشـــ ـــاقِ لا يقبـــلُ رَشْـــوَهْ

متعـــدٍ أو مـــا يَخْـــ شـــى مِـــن المظلـــومِ دَعْـــوَهْ

شِـــبْهُ رئـــمٍ غصـــنُ بـــانٍ بَـــدْرُ دَجْـــنٍ شمـــسُ ضَـــحْوَهْ

فيـــه تيـــهٌ ودلالٌ ولـــه لـــينٌ وقَسْـــوَهْ

ثمـــلُ العِطْـــفِ ومـــا دا رتْ عليـــهِ كـــأسُ قَهْـــوَهْ[3]

نراه في الأبيات السابقة يتغزل ويصف ممدوحه باعتدال القامة ، ويشبهه بولد الظبي في جماله ، وبالغصن البان وبالبدر الدجن وبالشمس في ضحاها ، ونجده ثمل العطف من كثرة الشراب .

يوضح لنا في الأبيات الآتية مواطن الحسن التي تستهويه ، وتزيد من انجذابه نحو الحبيب وتشده إليه ، ويتغزل في ممدوحيه تارة بالضمير المذكر وتارة أخرى بالضمير المؤنث ، فعندما تقرأ الأبيات يعطيك إحساسًا بأنه يتغزل في المرأة ، كما في قوله :

يـــروقُني في المهـــا[4] مُهَفْهَفُهَـــا ومِـــنْ قُـــدودِ الحســـانِ أهيفُهَـــا

(1) الديوان ص 303 .
(2) الديوان ص 439 .
(3) الديوان ص 438 – 439 ، القهوة : الخمر .
(4) المها : البقر الوحشي ويريد النساء على سبيل الاستعارة .

ومِـــنْ عيـــونِ الظِّبـــاءِ أفترُهـــا ومِـــنْ خصـــورِ المـــلاحِ أنحفُهَـــا

مـــا ســـقمي غـــيرُ سُـــقْمِ أعيُنهـــا ثـــم شـــفائي الشِّـــفاءُ أرشُـــفُهَا

يُسْـــكرني قَرقـــفٌ يُشَعْشِـــعُهَا لحـــظُ الطّـــلا لا الطِّـــلا وقرقفُهـــا[1]

يـــا ضـــعفَ قلـــبي مِـــنْ أعـــينٍ نُجـــلٍ أقتلـــــها بـــــالقلوبِ أضْـــعَفُهَا

ومـــــنْ عـــــذارٍ كأنّـــــه حَلِـــــقٌ وأحكـــم في ســـرورِهِ مُضْـــعِّفُها[2]

وهكذا يبدي إعجابه وافتنانه بملامح الوجوه وحسان القدود في غزل حسي ولكنه لا يتمادى فيه إلى درجة من الفحش والابتذال .

ونراه يصف الحبيب وكأنه مظهر من مظاهر الطبيعة الجميلة والخلابة مثل : الإقحوان ، البنفسج ، والورد ، وذلك في قوله :

للأقحـــوانِ ثغـــورُ الغانيـــاتِ كمـــا للنّـــرجسِ الغـــضِّ الحـــاظُ المهـــا العـــينِ

وللبنفســـــجِ حَـــــالٌ للعـــــذارِ إذا ما الخطُّ بالخالِ حاكى عَطْفَةَ النُّونِ

والـوَرْدُ خَـدٌّ مـن التّوريـدِ في خَجَـلٍ والعُصـنُ قـدٌّ تثنيـهِ مـن اللـينِ[3]

ونـرى أيضًـا الخـدود المـوردة الجميلـة تشـارك في كـثير مـن صـوره السـاحرة في خلب عقله لُبِّه ، كما في قوله :

ومِـــنْ خُـــدودِ حُمـــرٍ مُـــوَرَّدةٍ أدومُهـــــا للحيـــــاءِ أطرَفُهَـــــا

(1) الطلا : بكسر الطاء هي الخمر ، وبفتحها ولد الظبية ، والقرقف : الخمر .
(2) الديوان ص 306 .
(3) الديوان ص 434 .

في سـلبِ لُبِّـيّ تَلَطّفَـتْ فـأتى نحـوي بخـطِّ الصِّـبا مُلطفُهَـا[1]

ويحاول شاعرنا أن يزيل الصنعة الجامدة والحرقة الباردة من غزله فيضفي على أسلوبه نوع من المدح والدعابة ، كما في قوله :

وَحَـدُّه مـنْ أثـرِ السـلّثمِ كَـأنّ قَـدْ حُدِّشَـا
وَكَـادَ يمحـو لثُمـهُ عِـدَارَهُ المنقَّشَـا
كأنمّـا وَجْنَتُـهُ وَرْدٌ بَطـلٌ رُشِّشـا
رأيتُـهُ فَكَـدتُ مِـنْ عُجْـبي بـهِ أنْ أُدْهَشَـا
همـتُ أحيانـاً بـهِ لـولا الـتُّقى أنْ أبطّشَـا[2]

ونحـن نتفـق فيمـا ذهـب إليـه بعـض البـاحثين " بـأن الغـزل عنـد فريـق مـن الشعراء – ومـنهم العمـاد – لا يُعبر تمامًا عـن الواقـع ، بل هـو مـن بـاب العبث البريء ، وهـو ضرب مـن التصنع البـديعي لإظهـار الحـذق ، وذلك أن طبيعـة الشعر العربي ونظريـة التقليـد في الأخـذ استدعت مثـل هـذه الظـاهرة واستمرارها في هـذا العصر "[3] .

ومع أن الغزل بالمذكر يرجع إلى عصر أبي نواس إلا أن " الشعراء الذين قـالوا في هذا البـاب كـانوا ممن عرفوا بالخلاعة والمجون . أمـا في عصر الحروب الصليبية فرأينا رجالا وسموا بـالتقوى والـورع يكثرون مـن الغزل بالمذكر ، ويفحشون في ذلك

(1) الديوان ص 307 .
(2) الديوان ص 244 .
(3) د. عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك) ص 517 ، المكتبة العباسية ، دمشق ، 1972م.

إفحاشًا كبيرًا ، وكان الشعر لا يروج ولا يقبل عليه الناس إلا إذا غلب عليه هذا النوع من الغزل "[4] .

ونلخص مما سبق أهم سمات هذا الفن :

(1) احتل شعره الغزلي صدور قصائده الشعرية ، فقد خص البعض بمقطوعات قليلة ، والبعض الآخر أتى في ثنايا قصائده .

(2) ثمة ظاهرة واضحة في غزله هي " التغزل بالمذكر " وهذا تقليد شعري موروث ومعروف لدى الشعراء ، فراح يتغزل في ممدوحيه وذكر محاسنهم ومفاتنهم .

(3) لم يذهب في غزله كما ذهب الشعراء السابقين إلى وصف المرأة في قدها وخصرها وخدها وعيونها .

(4) يتغزل في ممدوحه وكأنه سلب مقلتيه وعقله وفكره ، فلا يستطيع الاستغناء عنه وألا يغيب عن ناظريه .

(5) جعل حبيبه مظهرًا من مظاهر الطبيعة الجذابة والخلابة مثل : الأقحوان والنرجس والورد والآس .

(6) كان في غزله بعيدًا عن مظاهر الفحش والابتذال والرياء .

---

(4) انظر: الحروب الصليبية وأثرها في الأدبي العربي فى مصر والشام ص 50 ، د. محمد سيد كيلاني ، ط دار الفرجاني ، ط 2، 1984م .

obeikan.com